

دمية القصر

قلت : ولعمري إنه لم يقصّر في هذا المعنى قلماً ولساناً حيث وضع بإزاره إساءته إلى السؤال إحساناً يُعفّي على ذنبه وجعل بحذاء الجُرم عذراً يُسوِّغ الاحتمال في جنبه . وجرت بيني وبين الشيخ أبي عامر الجرجاني مناشدة لِمَا قيل في أوصاف المَساويك ومذاكرة فيما انشعبت إليه الخواطرُ في اختلاف معانيها . فأُنشدني لبعضهم ثم قال وأظنّه لبشار بن برد :

ماذا عليكِ دُفنتُ قبلكِ في الثرى ... من أنْ أكون خليفةَ المِسواكِ .
أيجوز ويحكِ أنْ يكونَ متيِّمٌ ... في القَدَرِ عندكِ دون عودِ أراكِ .
واستلمحتُ تمزييه خلافةَ المِسواكِ عَيمةً منه إلى ارتفاع ريقه وطمأً إلى ارتشاف درّه المغروس في عقيقه . وأنشدني الشيخ أبو محمد الحمداني قال : أنشدني أبو الجوائز لنفسه :

واعتنقنا ضَمّاً يذوبُ حصى اليا ... قوت منهُ وتَطْمئنُّ الذُّهُودُ .
ثم هبّت رُوحةُ الفجرِ والكا ... شحُّ ناءٍ والعاذلاتُ رُقودُ .
كلّما نمّ للفُصولِ سوارُ ... كذّبته قلائدُ وعقودُ .
قلن : وكنت أسمع قول ابن هِنْدُو : .
تعانقنا لتوديعِ عَشِيٍّ ... وقد شرقتْ بأدمعها الحِداقُ .
فما زال العناقُ يضيّقُ حتى ... تشكّكنا ؛ عناقُ أو خناقُ .
فأعجب به وأتعجّب منه مع استبشاع لفظه الخناق عند ذكر العناق تطييراً منه حتى جاء أبو الجوائز في صفة الضَمِّ بالأكمل الأتمّ وهو قوله : وتطمئنُّ النهودُ . فإنّ جميع ما قيل قبله على التقصير عنهما شُهود .

وقد اتّفقَ لي في معناه ما لا أحسبني سُبِقتُ إليه من قصيدة وهو : .
واتفاقِ حَسَنِ أَلْ ... لَفَ شَمَلًا قد تَبَدَّدُ .
واعتناقِ ضيقِ يُو ... هِمُكَ المزوجِ مُفردِ .
وأما قوله : يذوبُ حصى الياقوت فيه فمعنى حسن لا يكاد يتأخّر عنه قول ابن هِنْدُو : .
ولمّا أنْ تعانقنا سَحَقْنَا ... عقودَ الدُّرِّ من ضيقِ العِناقِ .
فالأول ذوبُ تتداوب فيه الأمانى والثاني سحقُ تتساقطُ عليه الغواني . وله أيضاً C : .
أحبتُّها حَبَشِيَّةً بجَبينها ... شرطُ يُضاعف شرط كلِّ مُتَيِّمِ .
تقضي فينقاد القُضاةُ لحُكمها ... طَوْعاً وتفتكُ بالكَمِيِّ المُقَدَمِ .

ومنَ الدليل على الشجاعة للفتى ... أثرُ الجراحِ بوجهه والمقدّم .
وأنشدني الشيخ أبو عامر الجرجاني له : .
أمنَ تيريزَ شارفَني خيالُ ... وأصحابي بكاطمةٍ هُجودُ .
ضعيف المتّن لا يثنيه واشٍ ... يراصده ولا يعنيه بيد .
باعتتُ إليه خالصتي فدوّتُ ... به منها مضبّرةٌ وخُودُ .
تَراماهُ الأماعِزُ والفيافي ... وتلفظُهُ التّهائمُ والنّهجودُ .
ويَنهى البيضَ أنْ يسلبنَ قَرَني ... ذوائبُ تستثيرُ الوجودَ سودُ .
تنظّـرُ زورتي خَود لَعوبُ ... وتحذَرُ نَفرتي هيفاءُ رُودُ .
وكم سمحتُ صدوفُ ولا رقيبُ ... يُحرِّمُ ضمّها إلاّ النّهودُ .

قلت : ما زالت الشعراء يعدّون نَفحَ الطيب من الوُشاة وجرسَ الحَلّلي من الرّسّ قباء
فنهّدَ أبو الجوائز إلى النّهود وعدّـه هُ من المحذور وزاد به نغمةً في الطنبور . وفي
هذه القصيدة يقول :

وأُطلقُ في رحابِ المجدِ عزّماً ... له من صنّع أخلاقي قيودُ .
إذا ما أُخلقتُ أبردُ حالي ... فيردُّ الصبرِ يا بأبي جديدُ .
فويذلُّم المكارم من زمانٍ ... لئيمٍ وعدّه فينا وعيد .
تفانتُ أنفُسُ الأحياء حتى ... غدّوا ولجومهم لهم لُجود .
وأبطالُ إذا شرعوا العوالي ... فليس ورودها إلاّ الوريد .
هُم البيضُ القَواطعُ حين يُمسي ... لهم من نسجِ خيلهم عمودُ .
بَنو حربٍ لهم علاقُ الأعادي ... رضاعُ والسُّروجُ لهم مهودُ .
ولم يبرحْ على الصّهوات منهمم ... قيامُ بالعلّاهم قُعود .
وأنشدني أيضاً له :